

قصة الإمام محمد الباقر (عليه السلام)

رِحلَةُ عِبرَ كِتابٍ

مُقدّمة

الحمدُ لله وسلامُهُ على عبادِهِ الّذينَ اصطَفى مُحَمّدٍ وَآلِهِ الأئمّةِ المَعصُومينَ المَيامِينَ .

تَجْتَمِعُ فِي حَياةِ المَعصُومينَ عليهم السلام .. محاسن الفَضائِلِ وَمَكارِمُ الأخلاقِ ، فَهُمْ الهُداةُ لِلبَشَرِيَّةِ ، والدُّعاةُ إلى الخَيْرِ حَيثُ اجتَباهُمُ الله واصطَفاهُمْ لِيَكُونُوا قُدْوَةً وأسوَةً حَسَنَةً ، وَقَدْ حَفَلَتْ سِيْرَتُهُمْ بِالقَصَصِ الرَوائِعِ الّتي تَدُلّ عَلى أهمّيَةِ القِيَمِ والمُثُل الرّفِيعَةِ فِي حَياةِ الأمَمِ .

وَلمّا كَانتْ سِيرتُهُم المُشرقَةُ قَدْ غَطّتْ صَفَحاتٍ طَويلةٍ مِمّا كُتِبَ عَنْهُمْ ، لِذلِكَ فَقَدْ شَرَعَتْ مُؤسَسَةُ الإمامِ عليٍّ عليه السلام بإصْدارِ سِلْسِلَةٍ تَتَناسَبُ فِي أسلوب عرضها مع مستوى الناشئين باختيار مناسبة معينة من حياتهم وطرحها على شكل قصة تعميماً للفائدة العلمية وتشويقاً لأبنائنا الكرام في المزيد من المعرفة والعطاء الروحي لتراثنا الإسلامي الخالد .

داعين المولى العلي القدير أن يوفقنا إلى ما فيه خدمة آثارة السيرة المطهرة .



رحلةٌ عِبْرَ كِتْاب

كُنْتُ أَقْرأُكِتاباً.. وَبَيْنَما أَنا أُقلِّبُ صَفَحاتِهِ.. شَعَرْتُ كَأَنّي أَدْخُلُ مَدِينةً قَدِيمَةً.. يَبْدو عَلَيها مِنْ خِلالِ مَظاهِرِها أَنّها مَدِينَةٌ إِسلامِيّةٌ.. فَالكَثِيرُ مِنَ الرِجالِ الّذِينَ كانُوا يَمُرُّونَ مِنْ أَمامِي يَرْتَدُونَ الزيَّ الإِسلامِيَّ.. هِيَ إِذَنْ مَدينَةٌ إسلامِيّةٌ.. وَلكِنْ هُناكَ بَعضُ المَظاهِرِ الأُخرى تَتَناقَضُ مَعَ هذا المبدأِ.. فَأَنا أَرى بَعْضَ الرِجالِ وَهُمْ يَمرُّونَ مِنْ أَمامِي سُكارى يَتَرَنَّحُونَ في مَسِيرِهُمْ..

وَتَتَعالى مِنْ أَفواهِهِمْ قَهْقَهاتُ ضَحِكٍ عاليةٌ.. وكَلماتٌ لا يُمْكِنُ أنْ تُقالُ فِي أَماكِنَ عامَّةٍ.. فَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ النِساءِ.. وَيَتَناوَلُونَ بالتَفْصِيلِ مَفاتِنَهُنَّ.. وَأَسْمَعُ مِنْ أَماكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ أَصواتَ مُوسِيقى وغِناءٍ..



وَبَيْنَما أَنا أُواصِلُ سَيْرِي وَإِذا بِي أَجِدُ نَفْسِي أَمامَ شابٍّ يَرْتَدِي الزيَّ الإِسلاميَّ.. تَأَمَّلْتُ وَجْهَهُ وَهُوَ يَسِيرُ بِاتِّجاهِي.. كانَ يَبْدُو عَليهِ أَنَّهُ شَابٌّ مُؤَدّبٌ

وَعَلى خُلُقٍ جَيّدٍ.. صارَ الشابُّ بالقُربِ مِنّي فَسلّمْتُ عَلَيهِ.. فَتَوَقَّفَ وَقَدْ ارتَسَمَتْ عَلى شَفَتَيْهِ ابْتِسامَةٌ لَطيفةٌ جِدّاً. وَهُوَ يقولُ لِي : . وعَليكَ السَلامُ ياأَخي ورحمةُ اللهِ وَبَركاتُهُ.. يَبْدُو أَنَّكَ غَريبٌ.. مَظْهَرُ مَلابِسِكَ يَدُلُّ عَلى ذلِكَ..

. نَعَمْ أَنا كَذلِكَ.. وَلكِنْ هذا لَيسَ مُهِمّاً يا أَخِي.. أُريدُ أن أَسأَلَكَ عَنْ هذِه المَدِينَةِ..

فَهْيَ مِنْ خِلالِ طرازِ بُيُوتِها.. وَملابِسِ رِجالِها.. يَبْدو أَنّها مَدِينَةٌ إِسلاميّةٌ.. وَلكِنِّي أُشاهِدُ بَعضَ المَظاهِرِ الّتِي تَتَناقَضُ مَعَ الإِسْلامِ.. فَما هُوَ السَبَبُ فِي هذا.. ؟

فَجْأَةً.. وَإِذا بالشابِّ يَبْدو عَلْيهِ الحُزْنُ.. وَأَخَذَتِ الدُمُوعُ تَسِيلُ مِنْ عَيْنَيهِ وَهُوَ يُرَدِّدُ : . إِنَّهُمْ الأُمَوِيُّونَ.. الأُمَويُّونَ أَباحُوا لِأَنْفُسِهِمْ ما يَحْلُو لَهُمْ فِي ظِلِّ حُكْمِهِم..

. الأُمَويُّونَ.. ؟! أَما زَالوا يَحْكُمُونَ.. ؟

قَالَ الشابُّ وَهُوَ يُجَفِّفُ دُمُوعَهُ : . هَلْ تَعرِفُهُمُ.. ؟

. لَقَدْ عَرَفْتُ عَنْهُمْ الكَثِيرَ.. وأَنا أَقرأُ عَنْ حَياةِ أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام . وَعَلى خُلُقٍ جَيّدٍ..



. يا أَخي.. أنْتَ الآنَ فِي زَمنِ الإمامِ مُحَمَّدٍ بنِ عليٍّ الباقِرِ عليه السلام وَها هُمْ الأُمَويُّونَ مَازالوا يُمارِسُونَ الرَذِيلَةَ بِكُلِّ أَشْكالِها ومَظاهِرِها.. مُعْلِنِينَ الفسقَ والفجورَ في قُصورِهِمْ ونَوادِيهِمْ وأَيْنَما حَلُّوا..

انفَجَرَتْ عَيْنا الشابِّ بِالدُمُوعِ مِنْ جَدِيدٍ.. وَخَنَقَتْهُ العَبْرَةُ وَهُوَ يُحاوِلُ مُواصَلَةَ كَلامِهِ..

فَحَزِنْتُ كَثيراً لِحالِهِ.. وَبادَرْتُهُ بِالكلامِ مُحاوِلاً التَخْفِيفَ عَنْهُ : . هَوِّنْ عَليكَ يا أَخي..



. يا أَخي إنَّ مِنْ المُؤْسِفِ جِدّاً مَا يَجْرِي فِي قُصورِ هؤلاءِ الأُمَويّين وَقَدْ أَثَّرَ عَلى الكَثيرِ مِنَ المُسْلِمِينَ فَأَصْبَحُوا يُمارِسونَ جَمِيعَ المُنْكَراتِ.. ويَبْحَثُونَ عَنْ مَلَذّاتِ العَيْشِ وَمُغرِياتِ الدُنيا.. مَاذا يُمْكِنُ أَنْ نَفْعَلَ.. ؟ لَقَدِ اخْتارَ الحُكّامُ الأُمَويُّونَ لِبِناءِ دَوْلَتِهِمْ شَتّى أَساليبَ العُنْفِ والظُلْمِ وَالاضْطِهادِ.. فَقَتَلُوا الأَبرياءَ والصُلَحاءَ.. وَبذَّرُوا أَمْوالَ المُسلِمِينَ فِي سَبيلِ عُرُوشِهِمْ وشَهَواتِهِمْ.. وَقَدْ ذَهَبَ العَلَوِيُّونَ وَشِيعَتُهُمْ ضَحِيّةً لِتِلْكَ السِياسةِ الخَرْقاءِ.. لاَ لِشَيْءٍ إلاّ لِأَنَّهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِما يَشُدُّهُمْ إلى الناسِ..
وَيُؤَهِّلُهُمْ لِخِلافَةِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله .

. إِنّي عَرفْتُ عَنْ هؤلاءِ أَنَّهُمْ بَلَغُوا أَقْصى الحُدودِ فِي القَسْوَةِ عَلى أَهْلِ البَيْتِ عليهم السلام وَعلى شِيعَتِهِمْ..

وأَسْرَفُوا فِي إِراقةِ الدِماءِ وَشِراءِ الذِمَمِ.. بِالأَمْوالِ حَتّى صَارَتِ الحَياةُ مَشْحُونَةً بالظُلْمِ والفَسَادِ..



لِذلِكَ لُقِّبَ بِالباقِرِ لِتَبَقُّرِهِ بالعِلْمِ أَيْ إِنَّهُ تَوَسَّعَ فِيهِ وَعَرَفَ جَمِيعَ مَبادِئِهِ وأُصولِهِ.. وَبِما أَنَّهُ أَحدُ الأَئِمَّةِ الاثْنَيْ عَشَرَ لِذلَكِ أَنا أَسأَلُكَ عَنْ دَورِهِ فِي هذِهِ الظُروفِ..

فِي هذا الجَوِّ المَشْحُونِ بِالصِراعِ العَقائِديِّ.. وَجَدَ الإِمامُ مُحَمَّدُ الباقِرُ عليه السلام أَنَّ مَصْلَحَةَ الإِسلامِ تَفْرُضُ عَلَيهِ أنْ يَنْصَرِفَ إلى الدِفاعِ عَنْ العَقيدةِ ونَشْرِ تَعاليمِ الإِسلامِ..

فَالتَفَّ حَوْلَهُ الآلافُ مِمَّنْ يَطْلُبُونَ العِلْمَ والحَدِيثَ مِنْ شِيعَتِهِ وَغَيرِهِمْ.. وَصارَ عليه السلام يَجْتَمِعُ بِهِمْ عَلى شَكْلِ حلقاتٍ في مَسْجدِ المَدِينَةِ.. وقَدْ أَطْلَقَ بَعضُهُمْ عَلى هذِهِ الحلقاتِ اسْمَ الجامِعَةِ لِأَنَّها تَجْمَعُ بَيْنَ الحِينِ والآخَرِ المِئاتَ مِنْ مُخْتَلَفِ الأَقطارِ لِدِراسَةِ الفِقْهِ والحَدِيثِ والفَلْسَفَةِ والتَفْسِيرِ واللُغَةِ وَغَيرِ ذلِكَ مِنْ مُخْتَلَفِ العُلومِ.. وَقَدْ أَرْسَلَتْ بَعْضُ المُدُنِ مِثْلُ الكُوفَةِ.. والبَصْرَةِ.. وَواسِطِ ..



وَالحِجازِ إِلى هذِهِ الجامِعَةِ أَفلاذَ أَكْبادِها.. وَهيَ الآنَ عَلى وَشَكِ أَنْ يَتَخَرَّجَ مِنْها كِبارُ العُلَماءِ والُمحدِّثِينَ والرُواةِ..

. مَنْ هُوَ الحاكِمُ الأُمويُّ فِي زَمَنِكُمْ هذا.. ؟

. الحاكُمُ الآنَ هُوَ عَبْدُالمَلِكِ بْنُ مَروانَ.. وَقَدْ حَاوَلَ هذا أَنْ يَكونَ أَقلَّ عُنْفاً مِنْ أَسلافِهِ مَعَ العَلَوِيّينَ.. فَكَتَبَ إلى عامِلِهِ فِي الحِجازِ كِتاباً جَاءَ فِيهِ :. (جَنِّبْنِي دماءَ آلِ أَبِي طالبٍ)

وَقَدْ تَصوّرنا فِي بِدايةِ الأَمْرِ أنَّهُ أَدْرَكَ مَدى الاسْتياءِ الّذي خَلَّفَتْهُ سِياسةُ مُعاوِيةَ وَوَلَدِهِ يَزيدَ.. وَما تَرَتَّبَ عَلَيْها مِنَ الانتِفاضاتِ فِي مُخْتَلَفِ أَنْحاءِ الدَوْلَةِ.. وَلكِنْ مَا ظَهَرَ بَعْدَ ذلِكَ هُوَ أَنَّ لِعَبْدِالمَلِكِ بنِ مَروانَ مُنافِساً فِي الحِجازِ يُدْعى ابنُ الزُبيرِ.. وَقَدْ كانَتْ لَهُ أَطماعٌ اتَّسَعَتْ إلى العِراقِ وغَيرِهِ مِنَ المناطِقِ..

وَبَعْدَ أَنْ تَمَكَّنَ عَبْدُالمَلِكِ مِنَ القَضاءِ على خَصْمِهِ.. كَتَبَ إلى عُمّالِهِ فَأَمَرَهُمْ بِالشِّدَّةِ والقَسْوَةِ عَلى شِيعَةِ أَهلِ البَيتِ عليهم السلام وَأَمَرَ الحَجّاجَ بِالذَهابِ إلى العراقِ قَائِلاً لَهُ : (اِحْتَلْ لِقَتْلِهِمْ.. فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْهُمْ مَا أَكْرَهُ.. وَإذا قَدِمْتَ إلى الكُوفَةِ.. فَطَأْها وَطْأَةً يَتضاءَلُ لها أهلُ البَصْرَةِ).. وَراحَ يُراقِبُ جَمِيعَ التَحَرُّكاتِ والتَصَرُّفاتِ..



. أنَا قَرَأْتُ عَنِ الحجّاج.. فعَرَفْتُ أَنَّ لَهُ مَواقِفَ لَمْ يُحَدِّثِ التاريخُ بِأَسوَإِ مِنْها مَعَ الأَئِمَّةِ عليهم السلام وَشِيعَتِهِمْ.. وخَاصّةً شِيعَةِ العِراقِ.. وَبِما أَنَّ الحَجّاجَ يَعْمَلُ بِإِمْرَةِ عَبْدِالمَلِكِ بنِ مَروانَ فَمَعنى هذا أَنَّهُ فَعَلَ ما فَعَلَهُ بِدَفْعٍ مِنْهُ..

. هذا صَحِيحٌ..

. يا أَخي هُناكَ أَمرٌ يُحيِّرُنِي.. وَهُوَ حِينما تَنَبَّهَ عَبْدُالمَلِكِ بنُ مَروانَ إِلى قِرطاسٍ من النُقُودِ كانَ يَحْمِلُ طرازاً مِنْ كلماتٍ كُتِبَتْ باللُغَةِ الرُومِيَّةِ.. أَمَرَ بِتَرْجَمَتِها إِلى العَربيّةِ.. فَقِيلَ لَهُ أنَّ مَعناها : (أَبٌ . ابنٌ . وروحُ القُدُسِ) فَأَغْضَبَهُ هذا الأَمْرِ..

فَكَتَبَ إلى عامِلِهِ عَلى مِصْرَ وَهُوَ أَخُوهُ عَبدُالعزِيزِ بنُ مَروانَ.. يَأْمُرُهُ بِإِبطالِ ذلِكَ الطرازِ.. وَيَأْمُرُ صُنّاعَ القَراطيسِ أن يُطَرِّزُوها بِسُورةٍ مِنَ القُرآنِ..



وكَذلِكَ كَتَبَ إلى عُمّالِهِ في الآفاقِ.. يَأْمُرُهُمْ بِإبطالِ القَراطيسِ المُطرّزةِ بِطرازِ الرُومِ.. وَمُعاقَبَةِ مَنْ وُجِدَ عِنْدَهُ بَعْدَ هذا النَهْيِ شَيءٌ مِنْها بالضَرْبِ والحَبْسِ الطَوِيلِ..

.لَقَدْ فَهِمْتُ قَصْدَكَ يَا أَخي مَا أَكثَر الّذِينَ يَهْتَمُّونَ بِمظاهِرِ الإِسْلام دُونَ جَوْهَرِهِ .. وَعَبْدُالمَلِكِ بنُ مَروانَ واحدٌ مِنْهَمْ..

.وَرَغْمَ أنَّ مَلِكَ الرُومِ حَاوَلَ التأْثِيرَ عَليهِ إلاّ أَنّهُ لَمْ يُظْهِرْ تساهُلاً .

وأَخيراً هَدّدَهُ مَلِكُ الرومِ بِأَنَّهُ سَينْقُشُ شَتْمَ النّبيّ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم كَطرازٍ عَلى جَمِيعِ الدراهِمِ والدنانيرِ.. تُرى كَيفَ يُمْكِنُ لِدَولَةٍ كَدَولَةِ الرُومِ اَنْ تَتَدَخَّلَ فِي أُمورِ دَولَةٍ أُخرى بِما يَخُصُّ عُمْلَتِها النَقْدِيَةِ الّتِي تَتَعامُل بِها.. ؟!

.هذا لِأَنَّ دَولَتنا لَمْ يَكُنْ لَها عُمْلَةٌ خَاصّةٌ تَتَعامَلُ بِهَا.. فِجِمَيعُ الدراهِمِ والدَنانِيرِ كانَتْ تَصْنَعُها وتَنْقُشُها دَولةُ الرُومِ فِي مِصْرَ.. وَبِما أَنّها دَولةٌ نَصرانِيّةٌ فَهِيَ تَنْقُشُها بِطرازٍ مَسيحيٍّ..

.وَعِنْدَها وَجَدَ عَبْدُالمَلِكِ بنُ مَروانَ نَفْسَهُ أَمامَ مُشْكِلَةٍ لا يَستَطِيعُ حَلَّها..



وَمأزقٍ لا يَستطِيعُ الخُروجَ مِنْه.. وَقَد اسْتَشارَ جَمِيعَ مَنْ حَولَهُ.. فَلَمْ يَجدْ حَلاً.. وأَخيراً أُشِيرَ عَلَيهِ بِأَنْ يَسْتَشِيرَ الإِمامَ مُحمداً بنَ علي الباقرَ عليه السلام .. فَأَشارَ عَلَيْهِ الإِمامُ الباقرُ عليه السلام بِأَنْ يَصْنَعَ مِنَ الذَهَبِ والفِضَّةِ المُتَيَسَّرَةِ داخِلَ البِلادِ قِطَعاً نَقْدِيَّةً.. وَيَنْقُشُها بِطرازٍ إسلاميٍّ.. وَوَضَعَ لَهُ خِطّةً يَستَحِيلُ مَعها التَلاعُبَ فيوَزنِ الدَراهِمِ والدَنانِيرِ..

. هذا صحيحٌ.. ومُنْذُ ذلِكَ التاريخِ أَصْبَحَتْ لَنا عُمْلَةٌ نَتَداوَلُها داخلَ البِلادِ.

. وَلكِنْ كَيفَ أَقْدَمَ الإِمامُ مُحمّدٌ بنُ عليٍّ الباقرُ عليه السلام عَلى مُساعَدَةِ حاكِمٍ ظالِمٍ أَخْرَجَهُ مِنْ أَزْمَتِهِ.. وَحَلَّ لَهُ مُشْكِلَةً كادَتْ تَقْضِي عَليهِ.. ؟!

. الجوابُ هُنا بَسيطٌ جدّاً.. وَلا يَحتاجُ إلى تَفكِيرٍ.. هذا لِأَنَّ أَيَّ إمامٍ مَعصُومٍ يَضَعُ مَصْلَحَةَ الإِسلامِ فَوقَ كُلِّ اعْتِبارٍ.. فَعِنْدَما وَجَدَ الإِمامُ محمّدٌ الباقرُ عليه السلام أَنَّ مَصْلَحةَ الإِسلامِ تَقْتَضِي مُساعَدةَ عَبدِالمَلِكِ بنِ مَروانَ فِي مَشروعِ تَغْيِيرِ العُمْلَةِ النَقْدِيَّةِ.. بَادَرَ إِلى ذلِكَ لا مِنْ أَجْلِهِ وَإِنّما مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ الإِسلامِ والمُسْلِمِينَ..

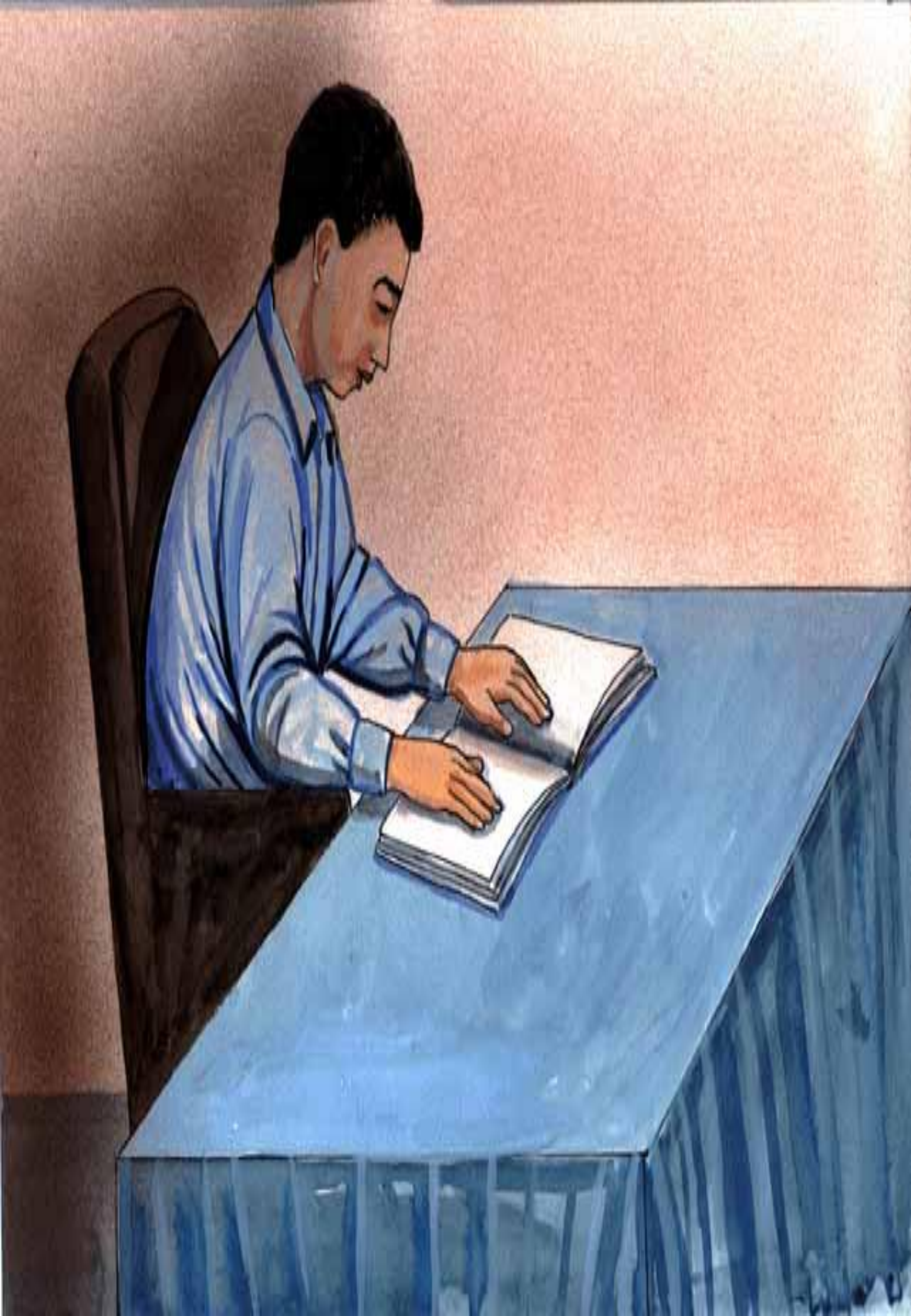
وَبَعدَ ذلِكَ ابتَسَمَ الشابُّ ابتِسامَةً عَرِيضَةً وُهُوَ يَقُولُ لِي :

. هَلْ تُوجَدُ لَدَيْكَ أَسْئِلَةٌ أُخرى.. ؟

. أَشكُرَكَ يَا أَخي عَلى مَا بَذَلْتَهُ مَعِي مِنْ مَجهُودٍ.. أَسْتَودِعُكَ اللهَ..

. مَعَ السَلامَةِ..

وبَعْدَ أَنْ وَدَّعتُ الشابَّ.. وَجَدْتُ نَفْسِي أُغلِقُ الكِتابَ الّذي كانَ بَينَ يَديَّ.. وَكَأَنِّي كُنْتُ فِي حُلُمٍ...



النهاية

رِحلَةُ عِبرَ كِتابٍ

المصدر: موقع رافد